الفصل الرابع

الميلاد

اللهم استخدمنا ولا تستبدلنا

بقدر ما كانت وحدة الأمة مهمة بقدر ما كان أي جهد فردى، على بساطته، له تأثيره في الوصول إلى الوحدة المنشودة. وبالتالي، فإن قصة الفتاة الدمشقية ميسون وما صاحبها من ردود أفعال لدى الآخرين لهو من أفضل الأمثلة على ذلك. نسأل الله العلى القدير أن يوفقنا إلى ما فيه رضاه وصلاح الأمة بأسرها.

أسرة صلاح الدين... من دوين إلى تكريت

لعل ما سبق من فصول هذا الكتاب تكون قد ألقت الضوء على الأحوال العامة للأمة والملابسات الفردية لبعض الأشخاص المؤثرين في مستقبل الأحداث، في الفترة التي سبقت مولد صلاح الدين. وبدءا بهذا الفصل تتحول بؤرة الاهتمام إلى صلاح الدين نفسه للحديث عن نشأته ونضوجه والعوامل التي أدت إلى تكوين شخصية صلاح الدين الأيوبي، ذائعة الصيت.

يرجع أصل أسرة صلاح الدين إلى بلدة دوين التي ما زالت موجودة في إقليم أران بمنطقة كردستان في أقصى حدود أزربيجان الغربية. وبالطبع، تخضع تطورات سيرة صلاح الدين إلى الأحداث القدرية التي لا يعلم مغزاها حال حدوثها إلا الله سبحانه وتعالى. وليس لأحد أن يقدم على أمر من الأمور إلا أن يكون قد قدره الله

له. ولذلك فإن بذرة البداية في سيرة صلاح الدين قد ارتبطت بجده شاذى بن مروان الذي اتخذ من مجاهد الدين بهروس صديقا حميما له. وقد فكر الصديقان، شاذي ومجاهد الدين، في الارتحال إلى بغداد سعيا وراء حياة أفضل. لم يكن شاذي بطبعه يميل إلى المغامرة بعكس صديقه مجاهد الدين الذي دفعته طموحاته إلى الانتقال إلى بغداد، مخلفا وراءه شاذى بن مروان مؤقتا. وفى بغداد تدرج مجاهد الدين في المناصب حتى صار مدير أمن بغداد ثم حاكمها الرئيسي، متمتعا بالنفوذ الواسع الذي وفرته له تلك المناصب. وعندها، تذكر صديق عمره شاذى بن مروان وأرسل إليه ليستحضره إلى بغداد. وقد لبى شاذى نداء مجاهد الدين وانتقل بأسرته إلى بغداد فرحب به حاكمها و ولاه على قلعة تكريت الواقعة على يمين نهر دجلة، وهى البلدة التي صارت معروفة إعلاميا في هذه الأيام بعد الأحداث الأخيرة التي ألمت بالعراق. ولتلك القلعة أهميتها الإستراتيجية عسكريا واستخباراتيا. وبذلك يكون شاذى قد ارتقى من إنسان عادى يرعى الغنم في بلدة دوين إلى حاكم لقلعة من أكبر قلاع العراق. وبعد وفاة شاذى، خلفه ابنه الأكبر نجم الدين أيوب في تولى حكم قلعة تكريت. وبطبيعة الحال كان لأخيه أسد الدين شيركوه دوره المهم بالقلعة.

واستمرت الأمور على ذلك الوضع حتى جاء موعد ميلاد صلاح الدين. ومن مقدرات الله سبحانه وتعالى وحكمه التي لا يعلمها إلا هو ، أن في ذات الليلة التي حضرت لأم صلاح الدين آلام الوضع، جاء أمر من مجاهد الدين بهروس بعزل نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه، والد وعم صلاح الدين، وطردهم من القلعة. وكان فجر اليوم التالي هو الموعد الذي حدده مجاهد الدين لتنفيذ أوامره بطرد ابني شاذى بن مروان وعائلتيهما وإلا اقتحمت قوات مجاهد الدين القلعة عنوة ووضع الأخوين في السجن لحين يبت مجاهد الدين في أمرهما. تشاءم نجم الدين من ميلاد ابنه صلاح الدين في هذه الظروف القاسية، لاسيما وأن

الصدمة جاءت مفجعة نظرا للحياة الرغدة التي كان عاشها الأخوان في تكريت. وقد بلغ التشاؤم مداه بنجم الدين حتى أنه غادر القلعة باكيا، فذكره خادمه بعدم جواز التشاؤم في الإسلام، وذلك من خلال كلمات رقيقة تحمل معاني الإيمان الراسخ بالله عز وجل والرضا بالقضاء والقدر، إذ يقول له: "يا مولاي نجم الدين، لا تدع للشيطان مدخلا إليك، فعسى الله أن يجعل لهذا المولود شأنا تسعد به أنت وآل بيتك، بل تسعد به الأمة كلها. وإني أذكر نفسي وأذكرك بقول الله عز وجل:

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء].

وقد أرجع البعض تشاؤم نجم الدين محمود بميلاد ابنه صلاح الدين إلى أن الوالد كان من الناس الألوفين للمكان ، لذلك فكان يعز عليه أن يرحل من القلعة، مصداقا لقول الشاعر الذي يخبر بأنه إذا عاد إلى شبابه سيكون فراقه لبياض شعره أمرا شاقا على نفسه:

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبتي موجع القلب باكيا

-لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.[1]

وبعودة إلى الأحداث التي سبقت عزل نجم الدين وأسد الدين وطردهما من قلعة تكريت، نجد أن الأسباب الرئيسة لذلك العزل تكمن في ثلاثة . قبل العزل ببضعة سنين ، وأثناء مجاهدة عماد الدين زنكي للصليبيين وزلزلته لهم، أخذ هؤلاء في إعداد حملة جديدة للقضاء عليه. و في نفس الوقت ، نشب قتال بين عماد الدين ومجاهد الدين الذي كتب له فيه الغلبة على عماد الدين، ويا ليت غلبته كانت على أعداء الإسلام وليس على مسلمين مثله. ولو أن قوات المسلمين اتحدت لكتب لها

(١)أخرجه مسلم.

النصر في مطلع الأمر. وعلى أثر هزيمة عماد الدين من مجاهد الدين حدثت مفاجأة كبرى تمثلت في فتح نجم الدين لباب القلعة حتى يدخلها عماد الدين وجنوده. ولم يكتف نجم الدين بذلك، بل إنه حرص على تمريض عماد الدين لمدة ثلاثة أسابيع ثم أوصله إلى الموصل آمنا. وإن كان مثل هذا التصرف يشكك في ولاء نجم الدين لمجاهد الدين، لكنه لا يشكك في ولائه وحبه للإسلام ورغبته في نصرة دين الله حتى إن الحوار التالي دار بين الأخوين أسد الدين ونجم الدين حول ذلك الأمر:

"ترى يا نجم الين، لماذا ساعدت عماد الدين زنكي وجنوده رغم أن ولاءك أصلا لمجاهد الدين بهروس؟

- يا أسد الدين، إنني حقا وليت قيادة قلعة تكريت تحت إمرة مجاهد الدين وله على حق السمع والطاعة إلا ...

- إلا ... ؟

- إلا فيما يغضب الله. وإني لأرى في عماد الدين زنكي إخلاصا في العزم على القضاء على هؤلاء الصليبيين وكسر شوكتهم. فلئن كتب الله النصر له كانت نصرة لديني. وإني لأراني مدفوعا إلى مساندته ليس كقائد يعلم ما للرجل من حنكة وصدق عزم في الجهاد، بل كمسلم ألمس فيه إخلاصا لدين الله ورغبة منه في نصرة هذه الأمة ورفعة رايتها".

ومن ذلك الحوار يتضح أن نجم الدين أيوب كانت لديه الرغبة في نصرة الدين حتى لو أدى ذلك إلى فقدانه لمنصبه وسلطته ومكانته. وإنما كان كل همه أن يدعم الأشخاص الذين يستطيعون الدفاع عن الدين. ولعل نجم الدين يكون بدعمه لعماد الدين قد تحاشى الوقوع في معصية الله تبارك وتعالى الذي يقول في كتابه الكريم:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة].

وكثيرا ما يواجه الإنسان مواقف لا بد له فيها أن يختار إما أن ينصر الدين أو أن يتمسك بما لديه دون التضحية بأي شيء. ولكن الاختيار الصحيح هو الدين لأن الأغلى على الإطلاق هو نصرة الدين وتقديم ما بالإمكان رغم ما يمكن مواجهته من مشقة من جراء ذلك، تماما مثل ما حدث مع نجم الدين أيوب. وربما يكون ما فعله هذا الرجل الصادق مع الله والمخلص لدينه أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى عزله وطرده من قلعة تكريت.

أما السبب الثاني الذي استثار غضب مجاهد الدين على نجم الدين هو ازدياد سلطة ونفوذ الأخير في القلعة وتعاظم حب الناس له. ولذلك، خاف مجاهد الدين أن يستأثر نجم الدين بالقلعة فقرر طرده منها.

والأمر الثالث الذي أغضب مجاهد الدين كان بسبب ما فعله أسد الدين. ويقال أن أسد الدين قتل مقدم العسكر بالقلعة والذي كان مقربا من مجاهد الدين. وقد فعل أسد الدين ذلك لأن المقدم كان قد اعتدى على امرأة داخل القلعة فاستنجدت بأسد الدين الذي قتل قائد العسكر.

تلك كانت الأسباب الأساسية التي من أجلها قام مجاهد الدين بهروس بعزل وطرد نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه من القلعة.

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (١)

عند خروجهما من قلعة تكريت، لم يكن أمام نجم الدين وأسد الدين سوى الانضمام إلى عماد الدين زنكي. خرجت قافلتهما حتى وصلت إلى مدينة الموصل في شمال العراق حيث استقبلهم عماد الدين استقبالا حسنا وعين نجم الدين وزيرا في السياسة، بينما جعل أسد الدين قائدا عاما لقواته. وبذلك يكون عماد الدين قد برهن على صفة أخرى من صفاته الحميدة وهى المتمثلة في التعرفان بالجميل تجاه نجم الدين. وكان ذلك أيضا دليلا على حسن اختيار عماد الدين للأشخاص الذين يمكنه أن يثق في أهدافهم وأن يعتمد عليهم. وقد قدر لصلاح الدين أن يبقى مع أسرته بالموصل لمدة عامين. وعندما فتح عماد الدين زنكي مدينة بعلبك التابعة لإمارة دمشق، عين نجم الدين حاكما لها.

التعليم في الصغر كالنقش على الحجر

من الجدير بالذكر أن صلاح الدين ظل سنتين بالموصل، ثم انتقلت أسرته إلى بعلبك ومكثوا بها سبع سنوات، ثم وصلوا إلى دمشق. و هكذا اكتسب صلاح الدين القدرة على التكيف مع الظروف المختلفة للزمان والمكان، مما أتاح له فيما بعد أن يظل سبعا وعشرين سنة على ظهر جواده دون أن يمل أو يكل، فمهما واجه من مصاعب تغلب عليها. ولكن كثرة الانتقال في الصبا أدت إلى إضعاف صحته وإصابته المتكررة بالأمراض.

ومما يدعو للدهشة أن نجم الدين أيوب اصطحب ابنه صلاح الدين وهو في السابعة من عمره إلى قلعة الرها أبان فتحه لها! وقف صلاح الدين مع والدته

(١) سورة الرحمن آية ٦٠.

ليشاهدا سويا أباه وهو يقاتل لفتح تلك القلعة، بما في ذلك من أكبر الأثر على تشكيل شخصية صلاح الدين وهو في هذه السن المبكرة.

كما كان أيضا للنظام الأسرى الذي نشأ صلاح الدين في كنفه تأثيرا عظيما على اكتسابه للتوازن في الشخصية. فإذا نظرنا مثلا لما يجرى الآن داخل محيط الأسرة نفاجأ بازدواجية في أسلوب التعامل، حيث يحرص الفرد على الالتزام خارج المنزل، لكنه يطلق العنان لنفسه حين يتواجد في محيط الأسرة. ولذلك ينتقد الأبناء في بعض الأحيان آباءهم وأمهاتهم بسبب هذا الازدواج في الشخصية الظاهر في الود الذي يعاملون به الناس خارج المنزل، وضيق الصدر عند التعامل مع أهل المنزل. أما صلاح الدين فكان أسلوب تعامله داخل المنزل هو نفسه الأسلوب الذي يعامل به الناس خارجه. كما كانت اهتماماته داخل وخارج المنزل لا تختلفان، إذ كانت تنصب في الانقسامات التي كانت تعانى منها الأمة والضعف المتفشي في أوصالها، وليس في هموم المأكل والملبس كما هو الحال في معظم بيوتنا حاليا.

إذن، فلم لا يهتم الآباء والأمهات بمشاكل الأمة ومحاولة التفاعل معها ايجابيا حتى يتأسى الأبناء بهم، إذ أن الأطفال يتأثرون بالمناخ المحيط بهم مثل قطعة الإسفنج التي تمتص ما حولها، وعند عصرها يخرج منها ما تكون قد امتصت؟ ويقوم الأب والأم، عبر السنين الممتدة، بتشكيل أطفالهما كما نشكل قطعة من الصلصال، بالزيادة في أمر ما، والنقصان في آخر،حتى تخرج شخصية الطفل كما أردنا لها.

ولذلك، تجدر الإشارة إلى أن شخصية صلاح الدين الأيوبي لم تنشأ عفويا، وإنما تطلبت نشأتها الكثير من حسن التوجيه من والده ووالدته. وعلى نفس النهج، مطلوب منا، بدلا من أن نكون سببا في إخراج شخصيات مهزوزة، أن نعمل على تكوين شخصيات سوية لشباب مستقر المعاني وواضح الأهداف، قادر على فهم

أبعاد كثيرة. وبالطبع، لن يكون ذلك ممكنا إلا إذا كنا نعى ما هو مطلوب منا بالتحديد.

وبالنسبة لصلاح الدين، فإن أكثر ما أثر فيه خلال الأربع سنوات الأولى من عمره هم ضيوف أبيه الذين يأتونه للتباحث معه في الأحوال القائمة بين المسلمين والصليبيين، أراضى المسلمين المغتصبة، مساعدة الآخرين، نجدة الإسلام والمسلمين.

أطفال صالحون

ولنا أن نتخيل مدى التأثير الذي يقع على الطفل عند تنشأته النشأة التي نشأها صلاح الدين في ذلك المحيط وبتلك الاهتمامات! لا بد أن كل ذلك سوف يشكل عنده أولويات تفكير وفقا للذي نشأ عليه. ولذا أسوق إليكم قصتين لطفلين معاصرين في إحدى المدارس التي تهتم بغرس القيم في نفوس الأطفال مثل الإيثار والتقوى.

كعادة الأطفال، أخذ الغلام يجرى ويلعب داخل المنزل، ثم شعر بضرورة قضاء الحاجة. وكان طفلا آخرا قد سبقه إلى دورة المياه، فلم يجد الغلام بداً من الذهاب إلى دورة المياه الخاصة بجدته. ولكنه كان يعلم أن الجدة كبيرة السن ولا تحب أن يقوم شخص آخر باستخدام الأغراض الخاصة بها! تردد الغلام قليلا ولكن الحاجة دعته إلى أن يقدم على مجازفة طلب الإذن من الجدة باستخدام دورة المياه الخاصة بها. وبمشاعر الجدة نحو حفيدها، أجابته إلى طلبه. ولكن الصبي كان يشعر بأن جدته لا تميل إلى أن يستخدم الآخرون أغراضها، فخرج قبل أن يقضى حاجته، رغم ما يشعر به من أذى، وقال لجدته: "أقسم بالله أن لديك إيثارا! عندك القدرة على إعطاء ما تحبينه لغيرك". لقد شعر الصبي بتلك القيمة لأنها كانت قد غرست في قلبه، فكان من الطبيعي أن يتعرف عليها عند مواجهتها.

طفل آخر داومت والدته على إعطائه تفاحة أو برتقالة عند ذهابه إلى المدرسة صباح كل يوم. وكان الطفل مازال بالحضانة، فشعر بالملل من تناول كل يوم الفاكهة التي تعطيها له والدته، فوضعها أمامه على مكتبه الصغير في الفصل. وعند مرور المعلمة دار بينهما الحوار التالي:

"ماذا بك يا بني؟ تبدو غير راض.

- ليس لد ى رغبة في أكل هذه البرتقالة.

- إذن، لا تأكلها.

- ولكن والدتي أمرتني بأكلها، فماذا أفعل؟

- الأمر بسيط للغاية، أعطها لأحد زملائك.

- كيف أفعل ذلك وأنا عندي تقوى؟! إن الله يراني، فكيف أعطى البرتقالة لشخص آخر وأقول لأمي أنى أكلتها؟!".

لقد تحرى ذلك الطفل الصغير تقوى الله سبحانه وتعالى وهو لم يتعد الخامسة من عمره بعد. ولذا، فإنى أسوق هذا المثال للآباء والأمهات الذين يظنون أن صغر سن الأطفال ليس مناسبا لبدء إلزامهم بسلوك معين. ولكن الحقيقة على العكس من ذلك إذ يمكن غرس القيم في الأطفال من سن ثلاث إلى سبع سنوات، وهى أهم فترة في حياة الإنسان. ولهذا السبب يمكن غرس الاهتمامات وتنمية المهارات والقدرات والتفكير الإيجابي في تلك السن المبكرة. وبدلا من أن تهتم المدارس بإعداد المدرس الكفء للمراحل الدراسية من الابتدائي إلى الثانوي، فالأجدر أن تكون معلمات الحضانة على وعى وإدراك يتيحان لهن غرس هذه القيم لدى الأطفال.

صلاح النشأة ... صلاح الدين الأيوبي

في الواقع، هذه المعاني التي يحتاجها أطفالنا في وقتنا الحالي هي نفسها التي غرست في نفس صلاح الدين وهو في محيط أسرته حتى نشأ وهو مدرك لمقومات السلوك القويم. والمدهش أنه حتى الوقت الذي كان يمضيه صلاح الدين في اللعب كان له هدف يفيده في المستقبل فقد كان يتخيل في لعبه كيف تكون المواجهة بين المسلمين والصليبيين.

وبالتالي فإن البيئة المحيطة بالطفل تلعب دورا كبيرا في تشكيل تركيبته. فهل الآباء والأمهات على دراية بالخمسة أمور التي تقوم عليها التربية السليمة؟ ما هي تلك المقاييس التي تتيح للأب والأم تقييم ابنهما ومعرفة ما إذا كان سويا أم لا؟ والغريب أن هذه المعايير لا تتضمن الأخلاق ولا المحافظة على الصلاة، وإنما تشمل عناصر أخرى كثيرة.

وبالعودة إلى ظروف نشأة صلاح الدين نفاجأ بأنه بدأ يتعلم الفروسية وهو فى الثالثة من عمره، وكان عمه أسد الدين شيركوه هو أول من وضعه على ظهر جواد. ولما ظهر القلق على أم صلاح الدين ذكّرها أسد الدين بأن ابنها ولد على ظهر جواد إذ أنهم رحلوا عن قلعة تكريت وانتقلوا إلى الموصل في يوم ميلاد صلاح الدين.، وطمأنها بأن ابنها سيكون له شأن كبير لو نشأ على الشجاعة.

ورغم مشاعر الأب والأم وصعوبة تقبلهم تعريض ابنهم للمخاطر في سن مبكرة إلا أن المفاهيم الصحيحة تؤكد أن إعداد البطل الأوليمبي يبدأ وهو في الرابعة من عمره. ولذا ينبغي أن يتم إعداد البطل القادم لرفع راية الإسلام وهو فى أولى سنوات عمره.

فاظفر بذات الدين تربت يداك [1]

وعند الحديث عن أهمية التنشئة الصالحة فلا بد إذن الاهتمام بدور الأم. ولذا فعلى أي رجل مقبل على الزواج أن يحسن اختيار الزوجة الصالحة التي يجد فيها القدرة على التربية السليمة وغرس القيم في الأولاد، فإن رعاية الأبناء من جانب الأم لا يقتصر على اهتمامها بمأكلهم وملبسهم ودراستهم. إنما التربية السليمة هي عبارة عن إضافة صفة حميدة للطفل أو إصلاح سلوك غير سوى. وعلى سبيل المثال، كان لأم صلاح الدين دور كبير في غرس المعاني السامية في نفسية ابنها. ولقد غرست فيه القدوة من خلال القصة التي كانت ترويها له كل ليلة قبل النوم. فكانت تروى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن الصحابة رضوان الله عليهم، وعن السلف الصالح رحمهم الله. ولقد روت أم صلاح الدين لابنها قصة أمراء بني أرطق الذين ظلوا ثلاثين عاما يقاتلون الصليبيين قبل ظهور عماد الدين زنكي. فماذا كان تأثير ذلك على صلاح الدين؟ وهل هناك سيرة أفضل من سيرة كل من عمل على رفع راية الإسلام حتى ترويها الأم لابنها في السن المبكرة؟

لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع

ويعد الإيمان بقضاء الله وقدره والرضا به ، خيره وشره، من الأمور التي تعرضنا لها في هذا الفصل. ولذا، فالمطلوب أن نزيد من شعورنا بهذا الجانب الإيماني في حياتنا، ولنا العبرة في نجم الدين أيوب الذي تشاءم لمولد ابنه يوم عزل الأب وطرده من قلعة تكريت، ثم أصبح ذلك الولد... صلاح الدين الأيوبي!

***

(١) حديث نبوي شريف رواه الشيخان وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة.

obeikandl.com